الغيرة على التوحيد

الهدهد السليماني نموذجاً

الغيرة على التوحيد

الهدهد السليماني

نموذجاً

كتبه:

رشاد بن أمين بن قاسم الورد

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، وخلق كل شيء فقدره تقديرا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، الواحد الحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحداً.

وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله بلغ الرسالة ونصح الأمة وجاهد في سبيل الله حق جهاده حتى أتاه اليقين من ربه.

أما بعد:

فإن من تأمل قصص القرآن الكريم، وصحيح السنة النبوية، وجد فيها نماذج مشرقة للغيرة على التوحيد، والدعوة إليه، والإنكار على من خالفه، ومن أعجب تلك النماذج وأبلغها قصة الهدهد مع نبي الله سليمان عليه السلام، لقد قام في قلبه من تعظيم الله والغيرة على حقه إلى إنكار الشرك الذي رآه في قوم سبأ، والسعي في إزالته، والدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ما يجعل العبد يقف متعجبا من همة هذا الطائر الصغير العجيب.

ولما كانت هذه القصة مشتملة على فوائد جليلة، ودلالات عظيمة في باب التوحيد والدعوة إلى الله، رأيت أن أجمع شيئاً من معانيها، وأبرز ما فيها من الدروس والعبر.

رسالة أسميتها.

«الغيرة على التوحيد: الهدهد السليماني نموذجاً» أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به كاتبه وقارئه، وأن يرزقنا تعظيم التوحيد، والغيرة عليه، والثبات عليه حتى نلقاه.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه/ رشاد بن أمين بن قاسم الورد

الغيرة على التوحيد

لا شك أن جميع الموجودات والمخلوقات تدين لله بالتوحيد فتعبده، وتخضع له، وتسجد، وتسبح، وتنقاد له، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [سورة الرعد:١٥].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة الإسراء:٤٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ﴾ [سورة النور:٤١].

إلا من اجتالته الشياطين فحرفته عن الفطرةِ السليمة.

ما في الوجود سواك رَبٌّ يُعْبَدُ = كلا ولا مولى هناك يُقْصَدُ

يا من له عَنَتِ الوجوهُ بأسْرها = رَهباً وكلُّ الكائناتِ تُوحِّدُ

وما في الوجود من مخلوق إلا وهو خاضع لربه، مفتقر إليه، منقاد لأمره، لا غنى له عنه طرفة عين.

والحيوانات ـ فيما يظهر من حالها ـ باقية على الفطرة التي فطرها الله عليها، لأنها غير مكلفة ولا مأمورة، فهي تُوَحِّد الله، ولا تُشرك به. أما الشرك فهو طارئ على البشرية، إذ الأصل الذي خلقهم هو التوحيد، كما قال تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ ٣٠﴾ [سورة الروم: ٣٠].

وفي هذه الرسالة أقف مع صورة بديعة من صور الغيرة على التوحيد، تجلت في قصة طائر صغير عظيم الشأن، خلد الله ذكره في كتابه الكريم، واسترسل القرآن في ذكره لما دلت عليه قصته، من الفوائد والعبر والدلالات العظيمة.

ولما اشتملت عليه أيضاً من نباهة نموذجاً فريداً الطائر وغيرته على التوحيد، وتقريره لكلمة التوحيد تقريراً بليغاً.

لقد فصَّل القرآن الكريم قصة الهدهد في سورة النمل تفصيلاً بديعاً وبينه بياناً رفيعاً، فخلَّد الله ذكره، وأعلى شأنه! وجعله نموذجاً فريد للغيرة على التوحيد والدعوة إليه والتحذير من الشرك وقوادحه، ليعلَم الناس أن شرف العبد وفضله والميزان الحقيقي

هو بقدر تحقيق التوحيد وإخلاص العبادة لله والدعوة إليه، ولعل هذه الصفات قد اجتمعت في هذا الهدهد مؤمناً بأعظم كلمة عرفتها البشرية، وأشرف كلمة نطقت بها الألسن، وهي كلمة التوحيد: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

ولم يكن إيمانه بها مجرد ألفاظ تردد، أو عبارات تحفظ، أو أحرف تلوكها الألسن، بل كان إيماناً قائماً على الفهم والإدراك والعمل، فقد عرف حقيقة التوحيد، وأدرك مقتضاه، وميز بينه وبين ضده، فأنكر الشرك، ونفر منه، ودعا إلى التوحيد ورغب فيه، بل كان أعلم من كثير من الإنس ـ بهذه الكلمة.

كان هذا المخلوق الصغير معتقداً لكلمة التوحيد، عاملاً بمقتضاها، وليس هذا فحسب بل داعياً من خالفها إلى اعتناقها، والعمل بها، عارفاً، بنواقضها ومبطلاتها.

لم يكن شأن الهدهد كشأن كثير ممن ينتسب إلى الإسلام في وقتنا الحاضر، يقولون «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» بألسنتهم، ويصرخون بها على المنابر والمآذن وفي المجالس والطرقات، ثم يرتكبون نواقضها،

مناقضة كلية أو جزئية، بأقوالهم وأفعالهم!!وذلك لأنهم لم يعرفوا معناها معرفة حقيقية، فظنوها كلمة يلوكونها بألسنتهم، ويتمتعون بها بأفواههم، من غير علم بمعناها ولا عمل بمقتضاها، وهو يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

فتارةً يذهبون إلى السحرة والعرافين، ويصدقونهم أنهم يعلمون الغيب من دون الله مع أن علم الغيب من خصائص الله سبحانه وهم مع ذلك يقولون: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»!!

وترى فريقاً لا يكادون يحصون يعتقدون في الأنبياء والأولياء النفع والضَّرَ من دون الله، فيُشركونهم مع الله في الدعاء والاستغاثة، وهم في الوقت نفسه يرددون كلمة التوحيد!!

وتارةً تجد آخرين يعلقون الحروز والتمائم على رقابهم وأولادهم وبيوتهم، معتقدين أو ظانين أنها تجلب النفع وتدفع الضرَّ، وهم مع ذلك يقولون: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»!!

فهؤلاء جميعاً يرددون كلمة التوحيد بألسنتهم، ولكن العبرة ليست بمجرد النطق، وإنما بحقيقة الاعتقاد، وصدق الانقياد، وتحقيق مقتضى هذه الكلمة العظيمة.

فما قيمة كلمةٍ تنطق بها الألسن إذا خالفتها الأعمال؟ وما نفع دعوى التوحيد إذا نقضها صاحبها بأقواله أو أفعاله؟

إن كلمة «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» ليست لفظاً مجرداً فحسب، بل هي عهد وميثاق، وإقرار تام، بإفراد الله بالعبادة، وبراءة تامة من الشرك وأهله، فلا تنفع قائلها إلا إذا علم معناها، وعمل بمقتضاها، واجتنب ما يناقضها أو يقدح فيها.

ثم ينتقل السياق إلى مشهد آخر من مشاهد هذه القصة العجيبة، مشهد يكشف جانبا من حكمة سليمان عليه السلام، ودقه متابعته لرعيته، وحسن قيامه بما استرعاه الله عليه.

فقد سخر الله لسليمان عليه السلام من الجن، والإنس، والطير، ما لم يسخِّره لأحدٍ من العالمين، يأتمرون بأمره، وينتهون بنهيه، ويسيرون وفق نظام محكم لا اضطراب فيه ولا خلل، كما قال

تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧﴾ [سورة النمل:١٧].

ومع ما أوتيه سليمان عليه السلام من مُلك عظيم، فإن أعباء الملك لم يشغله عن تفقد رعيته، ولم يحجبه عن متابعة أفراد جنوده، صغيرهم وكبيرهم.

ولهذا لما مرَّ بعالم الطيور يتفقدها ويتأمل أحوالها، لفت انتباهه غياب أحد أفرادها، وهو الهدهد، فقال متسائلاً ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠﴾ [سورة النمل:٢٠]. وفي هذا ما يدل على كمال ضبطه وحسن رعايته، إذ لم يغب عنه هذا الطائر الصغير بين تلك الجموع المحتشدة وبعد أن تحقق من غيبته، عزم على التحقيق معه ومسائلته وما سبب تخلفه، فقال بلهجة حازمة ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١﴾ [سورة النمل:٢١].

ولم يكن هذا الوعيد صادراً عن ظلم أو استبداد وحاشاه، وإنما كان من مقتضيات العدل والحزم وحفظ النظام! إذ لا تستقيم أمور

الرعية إذا ترك لكل أحد أن يتغيب متى شاء دون حساب أو مساءلة.

ومع ذلك لم يغلق سليمان عليه السلام باب العذر، ولم يحكم على الهدهد قبل سماع حجته، بل جعل له مخرجاً إن كان له عذر واضح أو حجة ظاهرة، فقال ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [سورة النمل:٢٣].

وهكذا جمع سليمان عليه السلام بين الحزم والعدل وبين القوة والإنصاف، وهي من أجلِّ الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها كل راعٍ ومسؤول عن رعيته.

فجعله بين أحد ثلاثة أمور:

الأول: إما العذاب الشديد الموجع بنتف ريشه وإلقائه في الشمس، ليكون لقمة سائغة للحشرات.

الثاني: وإما الذبح والإعدام النهائي.

الثالث: وإما العذر الواضح، والحجة القوية، التي يُعفى على إثرها ويُخلى سبيله، وهذا هو الكمال في العدل والإنصاف.

ولم يطل غياب الهدهد، فما هي إلا مدة يسيرة حتى عاد إلى نبي الله سليمان عليه السلام، يحمل خبراً عظيماً، ونبأ خطيراً، كان سبباً في تخليد ذكره في القرآن الكريم.

وإذ بتلك الجنود المحشودة، تتفاجأ بالهدهد قد أقبل من أرض اليمن (مأرب) محلقاً في سماء الشام، فالْتفّت حوله تحذره وتنذره بما توعده به سليمان عليه السلام.

فلم يبال الهدهد بذلك، لأنه يحمل النبأ اليقين، والعلم العظيم، ولأنه قد سرى بدمه حبّ كلمة التوحيد، ودافعية الدعوة إليها، والصبر على الابتلاء من أجلها، ولعلمه أن سليمان عليه السلام ليس ملكاً جباراً، ولا ظالماً مستبداً، وإنما هو مَلِكٌ رسول، العدلُ شعاره، والعفو دثاره، والسماحةُ خُلقه وسجيته، وهذه هي أخلاق الأنبياء.

فلما مثل بين يدي سليمان عليه السلام لم يبدأ بالاعتذار عن غيبته، ولم يشتغل بالدفاع عن نفسه، بل بدأ بلفت انتباه سليمان على أهمية الخبر الذي يحمله، فقال ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ [سورة النمل:٢٢].

مهّد لعذره بكلام متين ـ مما يسمى عند أهل البلاغة ببراعة الاستهلال ـ فأخذ بمجامع قلب سليمان.

الله أكبر، فأي ملك في الدنيا العدل سجيته ـ فضلاً عن أن يكون نبياً مرسلاً ـ لا يُصغي ويسمع، وأحد رعاياه يقول له: «علمت في غيبتي هذه ما لم تعلمه أنت ولا جنودك»؟ ثم أكد صدق ما ينقله بقوله: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [سورة النمل:٢٣]. أي: بخبر لا شك فيه ولا ريب، قائم على المعاينة والمشاهدة، لا على الظنون والتخمين.

فلما استقر السمع له، وتهيأ المقام لبيان ما عنده، كشف عن حقيقة ما رآه وأكده بتأكيد آخر فقال: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [سورة النمل:٢٣].

فبدأ بوصف حالهم السياسي والدنيوي، فذكر أن لهم دولة قائمة، ونظاماً مستقراً، وسلطاناً نافذاً، وأن الذي يتولى أمرهم امرأة تملك زمام الحكم والتدبير.

فهاتان الكلمتان ضمنتا إصغاء سليمان عليه السلام ومهّدتا تمهيداً موجزاً لإلقاء العذر، وترغيب سليمان عليه السلام في الإصغاء إليه، واستمالة قلبه نحو القبول، وهو نوع من براعة الاستهلال، وخطاب التهييج.

فلما تيقن الهدهد إصغاء سليمان إليه، واستعداده التام لسماع كلامه، كشف له عن حقيقة الخبر كشفاً مؤكداً فكأن السياق يوحي بأن سليمان سأله: وما هو النبأ اليقين الذي رأيته؟ فقال الهدهد: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، أي: من كل ما يؤتاه الملوك من السلاح والأموال، والجنود والحصون، والحشم والخدم، فهذه كناية عن عظمة ملكها وتراثها: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾، أي: سرير مُلك فخم ضخم، ذو بهجة ورونق، فوصف عرشها بالعظمة، إشارة إلى ما بلغته مملكتها من القوة والثراء وسعة النفوذ.

فالهدهد ـ إلى هذه اللحظة ـ لم يأت بعذر مقبول، بل ما زال يقف موقف المذنب، فكأن سليمان سأله وما هو النبأ اليقين الذي رأيته فقال ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة النمل:٢٣]: أي تتصرف فيهم وتأمرهم وتنهاهم ثم ذكر السبب في ضلالهم فبين أن ما هم عليه يقول له: «وإذا كان الأمر كذلك فماذا؟

هذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وما آتاني ربي خير مما آتاها، فأنت لم تأتني بسلطان مبين كما طلبت، ولم تلق عذراً حتى أعذرك به»

إلا أن الهدهد لم يكن معجباً بما رأى من مظاهر الملك وزينة الدنيا، ولم تستوقفه القصور ولا العروش، بل تجاوز ذلك كله إلى النظر فيما هو أعظم وأخطر، وهو جانب العقيدة والدين.

فانتقل مباشرة إلى أصل القضية ومحور الخبر، فذكر معتقداتهم الدينية الخرافية الشركية: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فهنا ظهر سبب اهتمامه بالأمر كله، وهنا تجلت غيرته على التوحيد، فلم يكن الذي أقلقه ملكهم ولا سلطانهم، وإنما الذي أقلقه أن يرى عبادة تُصرف لغير الله، وسجوداً يُتقرب به إلى غيره سبحانه

وهذا هو أنكر المنكر، وأظلم الظلم، وأعظم الذنوب على الإطلاق.

ثم ذكر السبب في ضلال فقال ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: وحببها إلى نفوسهم فظنوها خيراً وسعادةً ونفعاً وقربةً.

وهنا تظهر فطنة الهدهد، وحسن فهمه لحقيقة الشرك وأسبابه.

فتبين أن ما هم عليه من الضلال، لم ينشأ من فراغ، وإنما كان نتيجة لتزيين الشيطان وتلبيسه، إذ زين لهم الباطل حتى رأوه حقاً، وحسَّن لهم الشرك حتى ظنوه هدى.

فماذا كانت النتيجة ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، والسبيل: هو توحيد الله، والإقرار له بالعبادة، وحده، والبراءة من الشرك، فصدهم الشيطان عن قول «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وهي أعظم السبيل الذي ينجيهم من عذابه.

وقوله: ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، يدل على أن الشرك هو أعظم ما يحجب العبد عن الهداية، وأشد ما يفسد عليه دينه ودنياه.

ثم قال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾، سبحان من ألهمه وعلمه أن السجود لا يكون إلا لواحد أحد.

وتأمل طريقة الهدهد في الدعوة، فهو لما حذر من طريق الشرك، دل على طريق التوحيد وهذا ـ لعمر الله ـ هو الطريق الناجح في الدعوة إلى الله وينبغي أن يكون من سمات الداعية الناجح.

ثم وصف ربه سبحانه بما يوجب إفراده بالعبادة فقال: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة النمل:٢٥]. أي: يعلم الخفيَّ في أقطار السموات، وأرجاء الأرض، من صغار المخلوقات، والنباتات، وخفايا الصدور.

فكأنه يقول: إذا كان هذا شأنه سبحانه المنعم عليهم بأنواع النعم، العليم القادر المدبر ـ من نزول الأمطار، وخروج الثمار، وإنبات النبات، وسخر لهم الملك في هذه الأرض الطيبة.

وأعطاهم هذا العرش العظيم ـ فهو عطاء بلا حدود، وفضل بلا قيود، هو الذي يستحق الخضوع والسجود، وهو الذي يستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات! فكيف يسجد لغيره؟ وكيف يجعل له شريك في حق هو خالص له وحده.

فهذا ـ والله الذي لا إله غيره ـ لهو منتهى الحمق والسفه، ومنتهى الظلم والضلال، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وقد أدرك الهدهد أن فعل هذه المرأة وقومها ليس من مكارم الأخلاق ولا من صفات الكرماء.

أرأيت لو أن محسناً من الناس أحسن إليك بشيء من حطام الدنيا الفاني، ثم جازيت إحسانه إساءة، ومعروفه إنكاراً، فكيف ستكون نظرة العقلاء إليك؟!

فكيف بواهب النعم، مزيل النقم، الذي أعطى فأجزل، وأنعم فأفضل، الذي صور الإنسان في أحسن صورة، وأدام عليه الصحة والسرور، ومنحه العافية والحُبور، وصرف عنه كيد الشياطين وسائر الشرور، ثم طلب منه أن يعبده وحده ولا يشرك به شيئاً.

وهو في ذلك غني عن العالمين، وعن طاعة الطائعين، لا إله غيره ولا رب سواه، ولكن الأمر اختبار وابتلاء كما قال الله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة الملك:٢].

ثم يختتم الهدهد نبأه اليقين، بأعظم كلمة، وأجل حقيقة فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة النمل:٢٦].

فجمع في هذه الآية بين الألوهية وتوحيد الربوبية، فأثبت أن العبادة لا تكون إلا لله وحده، وأثبت أنه سبحانه رب العرش العظيم، الذي هو أعظم المخلوقات وأكبرها.

فكان ختام كلامه توحيداً خالصاً، كما كان مفتتح اهتمامه غيرةً على التوحيد، فدل ذلك على أن قلبه امتلأ بتعظيم حق الله، وإنكار ما يناقضه من الشرك والضلال.

فأخذ بمجامع قلب سليمان، وكانت سبباً في تسكين غضبه والعفو عنه والرضا به.

فلما بيَّن أن كل العوالم مفتقرة إلى الله، ذكر الدليل على ذلك، العرش الذي هو أعظم المخلوقات ومع ذلك، هو محتاج إليه أي إلى الله فقير إليه فقال هذه الكلمة العظيمة: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾

ونجد أنفسنا أمام طائر عجيب، صاحب ذكاء وإدراك، وإيمان عميق، وهمة عالية، معرفة عظيمة بالتوحيد ونواقضه، وبمعنى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

فهو ما إن رأى السجود ـ الذي هو أخص خصائص الله ـ يصرف لغير الله، إلا وأسرع في الإنكار، وعلم أن هذا الفعل يناقض كلمة التوحيد.

وهنا أقف وقفة فأقول أين المثقفون من دكاترة الجامعات، وأطباء المستشفيات، وكتاب الصحف والمجلات، الذين امتلأت بهم الأمة! أين هم من ثقافة وعلم هذا الطائر العجيب الموحد، والداعية الناجح؟؟

وأين المفكرون، وطلاب الجامعات الباحثون عن مستقبل زائف، من توحيد وعلم هذا الهدهد الداعي إلى الله على بصيرة؟!

إن بعض خريجي الجامعات في بعض الدول الإسلامية ليتخرج حاملاً أعلى الشهادات العالمية ـ دكتوراه، أو ماجستير ـ إذا سئل عن معنى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وعن شروطها، ونواقضها، تلكأ ولم يجد جواباً!!

بل إن بعض من يشار إليهم بالبنان ـ وللأسف الشديد ممن أشرت إليهم سابقاـ إذا سقط ولده، أو مرضت زوجته، أو ضلَّت ضالته، صرخ واستغاث: يا ست زينب، يا جيلاني، يا دسوقي، يا بدوي، يا خمستاه، يا علياه، يا حسيناه، يا أقطاب، يا أوتاد، أين أنت يا قطب الصالحين، يا غوث المتصرف في السموات والأرضين، وغير ذلك مما يندى له الجبين، وتنفطر له القلوب، وتحترق بسببه الأحشاء.

وآ أسفاه وآ حسرتاه ما هذا السقوط وإلى أين وصل بنا الحال؟ كيف رضو لأنفسهم بالأدنى دون الأعلى؟

وآ ندامتاه على أفعالهم، ودنو همتهم، وسوء صنيعهم!!

أفبمثل هؤلاء تستعيد الأمة بهم مجدها وعزها؟ كلا والله الذي لا إله غيره ولا رب سواه، لن يعود مجد الأمة المفقود وعزها المنشود بمثل هؤلاء!!

إن هذا الهدهد تخرج من مدرسة النبي سليمان عليه السلام، وهو يحمل أجل العلوم وأشرفها، إنه العلم بـ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ».

فكأن الهدهد بعد أن ألقى كلمته العظيمة، ونبأه البليغ، وخطبته الفصيحة، وختم ذلك النبأ بقوله: ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩﴾ كأنه يقول: رأيت منكراً لا يسعني السكوت عنه، وهو أعظم منكر، وأشد ذنب عصي الله به على وجه الأرض.

فلم يقر له قرار، ولم يهدأ له بال وهو يرى الأصل الأصيل وهو توحيد الله ينتهك؟

ولما انتهى الهدهد من خطبته تعجب سليمان عليه السلام كيف خفي عليه هذا النبأ العظيم، لم يبادر سليمان عليه السلام إلى التصديق المطلق، ولم يبادر كذلك إلى التكذيب والرد، بل سلك مسلك الأنبياء في التثبت والتحري فقال: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٧﴾ [سورة النمل:٢٧] وهذه الكلمة على وجازتها تعد أصلاً عظيماً من أصول التعامل مع الأخبار، إذ ليس كل ما يُنقل يُقبل بمجرد نقله، كما أنه لا يُرد لمجرد استغرابه، بل الواجب التثبت والبحث عن الحقيقة.

وفي هذا تعليم الأمة أن تبني أحكامها على البينات لا على الظنون، وعلى الحقائق لا على الأوهام، وأن تتثبت في الأخبار قبل إصدار الأحكام وترتيب الآثار، وفي هذا تعليم للأمة ثم قال بقلب راض عن هذا الطائر: ﴿۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة النمل:٢٧]

ثم انتقل سليمان عليه السلام مباشرة إلى معالجة هذا المنكر العظيم، فلم يكتف بسماع الخبر، ولم يؤخر الدعوة إلى الله، بل بادر إلى اتخاذ الأسباب التي تقود إلى هداية هؤلاء القوم.

فكتب إلى ملكة سبأ كتاباً مختصراً في ألفاظه، عظيماً في معاينة، جمع أصول الدعوة إلى الله في كلمات يسيرة، فكان نموذجاً بديعاً في البلاغة والحكمة وحسن الخطاب.

وقد افتتح كتابه باسم الله تعالى فقال: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة النمل:٣٠].

كتب هذه الرسالة يدعو فيها تلك المرأة وقومها إلى توحيد الله وترك عبادة ما سواه.

وقد اشتمل كتاب سليمان ـ مع وجازته ـ على ثلاثة أمور:

الأول: إثبات الإله الحق ووحدانيته، وكونه رحمن رحيم.

الثاني: النهي عن أتباع الهوى، ووجوب أتباع الحق.

الثالث: الأمر بالمجيئ إليه منقادين خاضعين مستسلمين.

فجمع هذا الكتاب ـ على وجازته ـ كل ما لابد منه في الدين والدنيا.

ثم سلَّم سليمان عليه السلام هذا الكتاب إلى الهدهد نفسه، فكان ذلك تكريماً له، ودليلاً على ثقته به، بعد أن ظهر صدقه، وثبتت أمانته، وعرف حسن قصده وغيرته على دين الله.

فطار الهدهد حاملاً رسالة التوحيد، بعد أن كان حاملاً لخبر الشرك، ليكون سبباً ـ بإذن الله ـ في انتقال أمة كاملة من عبادة الشمس إلى عبادة رب الشمس ورب العالمين.

وقد كلفه بأربعة أمور:

١ـ إيصال الكتاب إلى يد المرأة مباشرة.

٢ـ متابعة الأمر بعد استلام الكتاب.

٣ـ تقديم تقرير شامل عن المرأة وقومها.

٤ـ التنحي عنهم ملازمة للأدب، فسليمان يعلمه الأدب في انتظار الجواب.

فطار الهدهد برسالة نبي الله سليمان وألقاه بين يديها.

ولما وصل كتاب سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ، أدركت منذ اللحظة الأولى أنها أمام خطاب ليس كخطابات الملوك المعتادة، وأنها تتعامل مع قوة تختلف عن القوى التي عرفتها من قبل.

فجمعت وجوه قومها وأهل الرأي والمشورة في مملكتها، وعرضت عليهم الأمر، وقالت: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة النمل:٢٩].

فوصفته بأنه كتاب كريم، لما ظهر لها من شرف مضمونه، وحسن ألفاظه، وقوة معانيه، ثم قرأت عليهم ما جاء فيه، واستشارتهم في شأنه ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [سورة النمل:٣٠-٣١].

إلا أن قومها نظروا إلى القضية نظراً قاصراً فقالوا: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة النمل:٣٣]. فأخبروها بما يملكون من قوة وعدة وقدرة على المواجهة.

أما هي فقد كانت أبعد نظراً، وأعمق فهماً للعواقب، فأدركت أن الصدام قبل معرفة حقيقة الأمر ليس من الحكمة، وأن التثبت أولى من التسرع.

ولهذا أرسلت هدية إلى سليمان عليه السلام، لتختبر موقفه، وتنظر أهو ملك من ملوك الدنيا يريد التوسع في سلطانه، أم نبي مرسل يدعو إلى دين

الله فقالت بعد استشارتهم ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة النمل: ٣٤-٣٥].

تكلمت هذه المرأة بصراحة واضحة، وهو أن المرأة ـ مهما ادعت الكمال ـ فهي عاجزة عن مواجهة هذه المواقف الصعبة وحدها، وعن إدارة أمور الدولة العامة بمفردها.

فلما وصلت الهدية إلى سليمان عليه السلام ردها، وأعلن بوضوح أن الذي آتاه الله خير مما أوتي هؤلاء من متاع الدنيا وزخرفها.

فعلمت الملكة أن الأمر أكبر من ملك سليمان، وأنها أمام نبي مؤيد من الله تعالى.

ثم جرت الأحداث بعد ذلك بما أظهر الله فيه من الآيات الباهرات ما بهر العقول، وأقام الحجة على الملكة وقومها.

فلما رأت من دلائل النبوة، وشاهدت من براهين الصدق ما أزال عنها الشبهة، وأقام عليها الحجة، استجابت للحق، وأقبلت على التوحيد، وأعلنت براءتها مما كانت عليه من الشرك والضلال، فقالت كلمتها

الخالدة ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة النمل:٤٤].

إلى آخر القصة التي ذكرها الله في كتابه، والتي كان من أعظم نتائجها إسلام تلك الملكة ومن معها ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة النمل:٤٤].

فبدأت بالاعتراف بالخطأ، وأقرت بما كانت عليه من الضلال، وبينت سبب ضلالها وأنها كانت من قوم كافرين، ثم أعلنت إسلالها لله رب العالمين، ولم تقل: أسلمت لسليمان، وإنما قالت ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [سورة النمل:٤٤]. لأن القلوب لا تخضع إلا لله، والعبادة لا تكون إلا لله، والانقياد المطلق إنما هو لله وحده لا شريك له.

وهكذا انتهت القصة بانتصار التوحيد، وزوال الشرك، وهداية أمة كانت تعبد الشمس من دون الله إلى عبادة رب الشمس ورب السماوات والأرض.

وكان الهدهد ـ بعد فضل الله تعالى ـ سبباً في هذا الخير العظيم، حين غار على التوحيد، وأنكر الشرك، وسعى جاهداً في تبليغ الحق، فجعله الله سبباً الهداية أمة من الأمم، وخلد خبره في كتابه الكريم يتلى إلى قيام الساعة.

وفي ذلك أعظم دليل على أن الله قد يجعل الخير العظيم على يد عبد ضعيف، إذا صدق مع الله، وعظم حقه، وقام بما أوجب الله عليه من الدعوة إلى التوحيد والذب عنه.

فالعبرة ليست بضخامة الأجسام، ولا بعلو المناصب، ولا بكثرة الأتباع، ولا بعلو المناصب، ولا بكثرة الأتباع، وإنما العبرة بصدق الإيمان، وصحة التوحيد، والقيام بحق الله تعالى ولهذا استحق الهدهد أن يكون مثالاً خالداً للغيرة على التوحيد، والدعوة إلى الله على بصيرة، والإنكار على الشرك وأهله بالحكمة والبيان.

ذكر الفوائد والعبر المستفادة من هذه القصة العظيمة

الفائدة الأولى: ومن فوائد قصة الهدهد: أن الأنبياء عليهم السلام لا يعلمون الغيب، وإنما يعلمون ما أطلعهم الله عليه، فإن سليمان عليه السلام، مع ما آتاه الله من الملك وتسخير الجن والطير، لم يعلم خبر سبأ حتى جاءه الهدهد بنبأ، فدل ذلك على أن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده قال تعالى ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥﴾ [سورة النمل:٦٥].

الفائدة الثانية: تقديم الأهم فالأهم من أعظم ما يستفاد من هذه القصة ان الداعية ينبغي أن يقدم أعظم الواجبات وأجلها، وأن يبدأ بالأصول قبل الفروع، وبالكليات قبل الجزئيات، فالهدهد مع علمه بأنه قد تخلف عن الحضور بين يدي سليمان عليه السلام، وأن ذلك يعرِّضه للعقوبة، رأى أن ما شاهده من وقوع قوم سبأ في الشرك بالله أعظم شأناً وأشد خطراً، فبادر إلى بيان ذلك وإنكاره.

وفي هذا دلالة على أن الدعوة إلى التوحيد مقدمة على سائر الأعمال، وأن إنكار الشرك والعناية بإزالة أسبابه من أولى ما ينبغي أن تُصرف إليه الجهود.

الفائدة الثالثة: عناية الراعي برعيته، تدل القصة على عظم مسؤولية الراعي، وأن من كمال رعايته تفقد أحوال من تحت يده، والسؤال عن غائبهم، والاهتمام بشؤونهم.

فمع ما أويته سليمان عليه السلام من الملك العظيم والجنود الكثيرة، لم يغفل عن طائر صغير من جنوده، بل افتقده وسأل عنه.

وفي هذا تنبيه لكل من ولي أمراً من أمور المسلمين، صغيراً كان أو كبيراً، أن يقوم بحق الرعاية والمتابعة، وألا تشغله كثرة الأعمال عن تفقد من استرعاه الله عليهم.

الفائدة الرابعة: الحزم أساس انتظام الأمور في قوله تعالى ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ [سورة النمل:٢١]. دليل على أهمية الحزم في إدارة الأعمال وحفظ الأنظمة، فإن التهاون في أداء الواجبات، والتساهل في المخالفات، يفضي إلى الفوضى واضطراب الأحوال، غير أن الحزم المحمود هو ما كان مقروناً بالعدل والإنصاف، كما ظهر من موقف

سليمان عليه السلام حين استثنى حالة وجود العذر البين والحجة الظاهرة.

الفائدة الخامسة: التثبت من أخبار الفاسقين والجاهلين، وخاصةً عند المسائل الكبار العظام، من أعظم الفوائد المستنبطة من القصة وجوب التثبت من الأخبار قبل الحكم عليها.

فمع ما ظهر من صدق الهدهد، لم يبن سليمان عليه السلام موقفه على مجرد الخبر، وإنما قال: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة النمل:٢٧]، وهذه قاعدة عظيمة يحتاجها الناس في كل زمان، ولا سيما مع كثرة الشائعات وسرعة انتشار الأخبار، فإن كثيراً من الأخطاء والخصومات والظلم إنما ينشأ من التسرع في قبول الأخبار دون تثبت أو تحرٍّ.

الفائدة السادسة: فضل الغيرة على التوحيد وهي أعظم فوائد القصة وأبرز مقاصدها، فإن الهدهد لم يحركه طلب دنيا، ولا رغبة في جاه، وإنما حركه ما قام في قلبه من تعظيم حق الله والغيرة على توحيده.

فلما رأى السجود لغير الله استنكر ذلك، وعدَّه أعظم ما يستحق الإنكار، وسعى في إزالة هذا المنكر بحسب ما استطاع.

وكلما كان العبد أعظم تعظيماً لله تعالى، وأكمل معرفة بحقه، كانت غيرته على التوحيد اشد، وإنكاره للشرك أعظم، ودعوته إلى الله أقوى وأصدق.

الفائدة السابعة: فضل الصدق وأثره في نجاح الدعوة، من أعظم ما يعين الداعية على قبول قوله وانتفاع الناس بدعوته صدقه مع الله ومع الخلق.

وقد ظهر ذلك جلياً في خبر الهدهد، فإنه لما صدق في خبره، وأتى بالنبأ اليقين، جعله الله سبباً في هداية أمة كاملة إلى التوحيد.

والصدق من أعظم أسباب التوفيق، كما أن الكذب من أعظم أسباب الخذلان والحرمان.

الفائدة الثامنة: فضل العلم وشرف أهله، دلت القصة على عظيم منزلة العلم، وأن شرف العبد إنما يكون بما يحمله من العلم النافع والإيمان والصادق فقد رفع الله ذكر هذا الطائر الصغير، وخلد خبره في القرآن، لما أوتيه من الفهم والإدراك، ومعرفته بخطر الشرك وعظمة التوحيد.

وفي هذا دليل على أن العلم النافع يرفع صاحبه، وإن كان ضعيفاً في بدنه أو قليلاً في شأنه عند الناس.

الفائدة التاسعة: عدم احتقار أحد من الخلق، فقد يكون عند من يراه الناس صغيراً أو حقيراً من الفهم والحكمة والبصيرة ما ليس عند غيره.

فالهدهد طائر صغير الحجم، ومع ذلك حمل من الفقه في هذه الواقعة ما لم يحمله كثير من الخلق.

وفي هذا زجر عن احتقار الناس وازدرائهم، والحكم عليهم بمجرد صورهم أو منازلهم أو مناصبهم.

الفائدة العاشرة: شرف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن الهدهد لما رأى قوماً وقعوا في أعظم المنكرات، وهو الشرك بالله، لم يسكت عن ذلك، بل أنكر وسعى في غزالته بحسب استطاعته.

وفي هذا بيان أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أجلِّ القربات، وأنه سبب في حفظ الدين وصيانة المجتمعات من أسباب الانحراف والفساد، وأعظم المعروف توحيد الله، وأعظم المنكر الشرك به سبحانه.

الفائدة الحادي عشرة: المبادرة إلى معالجة المنكر فإن سليمان عليه السلام لما بلغه خبر الشرك في سبأ لم يؤخر الأمر، ولم يتردد في دعوة القوم على الحق، بل بادر إلى إرسال الكتاب وإقامة الحجة عليهم، وفي هذا دليل على أن المنكر إذا أمكن تغييره أو السعي في إزالته لم يجز التساهل فيه أو تأخير معالجته من غير عذر معتبر.

الفائدة الثانية عشرة: أن الهداية بيد الله وحده فمع ما بذله الهدهد من جهد، وما قام به سليمان عليه السلام من دعوة وبيان، فإن الذي هدى الملكة وقومها في نهاية المطاف هو الله سبحانه وتعالى.

وفي هذا تذكير للدعاة بأن عليهم البلاغ والبيان، وأما هداية القلوب فبيد الله وحده، يؤتيها من يشاء بفضله ورحمته.

الفائدة الثالثة عشرة: أثر الكلمة الصادقة في تغيير الأمم.

فقد بدأت قصة هداية سبأ بخبر نقله هدهد، ثم برسالة موجزة كتبها نبي من أنبياء الله، فكانت النتيجة انتقال أمة كاملة من الشرك إلى التوحيد، وفي هذا دليل على أن الكلمة الصادقة إذا خرجت من قلب مخلص، ووافقت الحق، بارك الله فيها، وجعل لها من الأثر ما لا يخطر على الباب.

الفائدة الرابعة عشرة: أهمية الشورى وحسن الاستعانة بأهل الرأي.

دلت القصة على أهمية الشورى في إدارة الأمور العامة والنوازل المهمة، وأن الرجوع إلى أهل الخبرة والرأي من أسباب إصابة الحق وسلامة القرار.

فإن ملكة سبأ لما وصلها كتاب سليمان عليه السلام لم تستبد بالأمر، بل جمعت أهل المشورة من قومها، وعرضت عليهم القضية، وطلبت رأيهم فيها.

وفي هذا بيان أن الاستبداد بالرأي من أسباب الخطأ، وأن المشاورة من أسباب التوفيق، لا سيما في القضايا العظيمة التي تتعلق بمصالح الأمة وشؤونها العامة.

الفائدة الخامسة عشرة: الحذر من الاغترار بزينة الدنيا.

لقد وصف الهدهد ما أوتيته ملكة سبأ من أسباب الملك والعظمة، وما كان لها من العرش العظيم، ومع ذلك لم يمنعه ذلك من إنكار ما كانت عليه من الشرك.

وفي هذا دليل على أن ميزان التفاضل الحقيقي ليس المال ولا السلطان ولا الجاه، وإنما الإيمان والتوحيد.

فقد يجتمع للعبد من أسباب الدنيا ما يجتمع، ثم لا يكون ذلك وزن عند الله إذا خلا قلبه من التوحيد والإيمان.

الفائدة السادسة عشرة: أن الداعية لا يبيع دينه بعرض من الدنيا.

لما أرسلت ملكة سبأ هديتها إلى سليمان عليه السلام لم يقبلها، ولم تغره زخارف الدنيا ومتاعها، بل أعلن أن ما أتاه الله خير مما عندهم.

وفي هذا درس عظيم للدعاة على الله، وهو أن الدعوة لا ينبغي أن تكون وسيلة لتحصيل الدنيا، ولا طريقاً لطلب الجاه أو المال، بل يكون المقصود منها ابتغاء وجه الله تعالى وإقامة دينه.

الفائدة السابعة عشرة: وجوب شكر النعم.

من المعاني الظاهرة في القصة كثرة شكر سليمان عليه السلام لربه، واعترافه بفضل الله عليه.

فقد كان يرى ما هو فيه من الملك والنبوة وتسخير الجن والإنس والطير نعمة من الله تستوجب الشكر، لا سبباً للعجب أو الكبر.

وفي هذا تنبيه إلى أن دوام النعم مرتبط بشكر المنعم، وأن من أعظم أسباب زوالها الغفلة عن شكر الله تعالى.

الفائدة الثامنة عشرة: أن الإسلام يعصم الدماء والأموال والأعراض.

فإن ملكة سبأ وقومها لما دخلوا في الإسلام زال سبب القتال، وصارت لهم حرمة الإسلام وعصمته.

وفي هذا بيان لعظمة هذا الدين، وأنه دين رحمة وعدل، يحفظ للناس دماءهم وأموالهم وأعراضهم متى دخلوا فيه وانقادوا لأحكامه.

الفائدة التاسعة عشرة: أن العبرة بحقائق الإيمان لا بمجرد المعرفة النظرية.

فقد فهم الهدهد حقيقة التوحيد وآثاره، وأنكر الشرك وإن لم يكن حافظاً للحدود والتعريفات الاصطلاحية التي يذكرها أهل العلم.

وفي هذا تنبيه إلى أن المقصود من العلم العمل والامتثال، لا مجرد حفظ المسائل والألفاظ.

فكم من إنسان يحفظ كثيراً من المعلومات، ثم لا يظهر أثر ذلك على اعتقاده وسلوكه وعمله.

الفائدة العشرون: أهمية تحقيق معنى النفي والإثبات في كلمة التوحيد.

فإن كلمة «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» قائمة على ركنين عظيمين:

أحدهما: نفي العبادة عن كل ما سوى الله.

والثاني: إثبات العبادة لله وحده لا شريك له.

وقد اشتمل كلام الهدهد على هذين الأصلين، فأنكر السجود للشمس من دون الله، ودعا إلى السجود لله رب العالمين.

وهذا هو حقيقة التوحيد الذي بعث الله به جميع الرسل.

الفائدة الحادية والعشرون: معرفة نواقض التوحيد من أسباب الثبات عليه.

فإن الهدهد أدرك أن السجود للشمس يناقض أصل التوحيد، فأنكر ذلك أعظم الإنكار.

وفي هذا دليل على أن معرفة الشرك وأسبابه ونواقض التوحيد من الأمور المهمة، لأن العبد لا يمكنه اجتناب الشيء والحذر منه إلا بعد معرفته والعلم بحقيقته.

الفائدة الثانية والعشرون: أن التوبة الصادقة تمحو ما قبلها.

فإن ملكة سبأ كانت على الشرك بالله، ثم لما تبين لها الحق رجعت إليه، واعترفت بخطئها، وأعلنت إسلامها رب العالمين.

فدل ذلك على سعة رحمة الله، وعظيم فضله، وأن من صدق في توبته ورجوعه إلى الله قبله الله وغفر له ما سلف من ذنوبه.

وهذه من أعظم البشارات لأهل الذنوب والانحراف، أن باب التوبة مفتوح، وأن الله يقبل من عباده من أقبل عليه صادقاً منيباً.

خاتمة

وفي القصة فوائد أخرى كثيرة نكتفي بهذا القدر منها. وخلاصة ما تقدم:

١ـ أن التوحيد هو أعظم ما أمر الله به، والشرك أعظم ما نهى عنه.

٢ـ أن الدعوة إلى الله تبدأ بصحيح العقيدة، وتقديم الأهم فالأهم.

٣ـ أن الصدق مع الله، والعمل بمقتضى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» نفياً وإثباتاً، وهو طريق النجاة في الدنيا والآخرة.

٤ـ أن العبرة ليست بحفظ الشروط والأركان فقط، بل بتحقيقها قولاً وعملاً واعتقاداً.

٥ـ أن على الراعي أن يكون حازماً ليناً، يقبل العذر ويعفو عن الزلة إذا كانت المصلحة تقتضي ذلك.

٦ـ أن العلم النافع ما يورث الخشية لله، ويحمل صاحبه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

نسأل الله أن يجعلنا من أهل التوحيد الخالص، والدعاة إلى سبيله على بصيرة والحمد الله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

والله ولي الهداية والتوفيق.